التحليل الاجتماعي للأدب غير المنشور

مقدمة لدراسة استطلاعية

بقلم السيد يس

سبق لنا ان درسنا بشيء من الافاضة علاقة الادب بالمجتمع (١). ولم نقنع في هذه الدراسة باطلاق مجموعة من التعميمات غير المنضبطة عن هذه العلاقة ، وانما حاولنا ان نؤصل المناقشة في هذا الموضوع من خلال عرضنا المنهجي للقضايا الرئيسية لعلم الاجتماع الادبي ، وهو ذلك الفرع من فروع علم الاجتماع الذي يهتم بالدراسة العلمية للادب بحسبانه ظاهرة اجتماعية .

وقد تبنينا بهذا الصدد اطارا مثلث الجوانب يسع دراسة كل الجوانب المتعددة للادب من وجهة النظر الاجتماعية ، وهذا الاطار يدرس الادباء ، والاعمال الادبية ، والجمهور . وذلك على اساس انه لا يمكن فهم الظواهر الادبية بغير الدراسة التكاملية لهذه الجوانب الثلاثة جميعا. وقد عنينا فيما يتعلق بدراسة الاعمال الادبية من وجهة النظر الاجتماعية ، بابراز الفائدة الكبرى التي يمكن ان نجنيها لو حللنا مضمون هذه الاعمال ، من وجهة نظر فهم الجوانب الخفية لعملية التغير الاجتماعي والثقافي التي تأخذ مجراها بصورة دائمة في المجتمع .

فمن المعروف ان البناء الاجتماعي لكل مجتمع ، الذي يضم في العادة عددا من الانساق المترابطة ، كالنسق السياسي والنسق الاقتصادي والنسق المعرفي وغيرها ، لا يظل ثابتا عبر الزمن ، بل ان التغير يلحق به بصورة دائمة ، ويؤدي الى تغيير قسمات هذه الانساق تغييرا جزئيا او كليا حسب الظروف والمراحل المختلفة . والعوامل التي تؤدي الى التغير الاجتماعي عديدة ، غير ان اهمها على الاطلاق تغير نمط الانتاج في المجتمع . واذا اعتمدنا في هذا الصدد على التحليل المعروف الذي قدمته الاشتراكية العلمية ، في تفريقها بين البناء التحتي للمجتمع ونعني قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وبين البناء الفوقي الذي يضم الدين والاخلاق والقانون والتقاليد وغيرها من الجوانب المعنوية ، فاننا نستطيع ان نصف ونفهم ونفسر التغيرات الاجتماعية التي تلحق بالانساق الاجتماعية والثقافية في المجتمع .

فدخول التصنيع الى مجتمع زراعي اساسا ، من شأنه باعتباره تغييرا جوهريا في البناء التحتي للمجتمع ، ان يحدث تغييرات بالغة العمق في القانون السائد ، وفي تركيب الاسرة ، وفي نظام الزواج ، وفي نمط العلاقات الجنسية بين افراد المجتمع والمفاهيم التي ترتكز عليها ، بل وحتى في الاتجاهات الدينية ، وبعبارة مختصرة في جماع العلاقات الاجتماعية .

والتغير الاجتماعي بذلك ينطوي على عديد من العمليات الاجتماعية التي عادة ما تكون محصلتها التغيير الجوهري في بناء شخصية الانسان ذاته في حقبة تاريخية محددة .

وتستطيع الاعمال الادبية العظيمة — كما حدث فعلا في عديد من الآداب القومية — ان ترصد هذه العمليات الاجتماعية اللصيقة بالتغير الاجتماعي ، وان تلقي الاضواء عليها وعلى مساراتها المتعددة ، بصورة اكثر بروزا ووضوحا وحيوية من كثير من البحوث العلمية .

ومن هنا يهتم الباحثون العلميون بتحليل مضمون مثل هذه الاعمال ، حتى يضعوا ايديهم على مفاتيح التغير الاجتماعي في المجتمع واثاره ، وخصوصا بالنسبة

---

(١) انظر كتابنا : التحليل الاجتماعي للادب ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠ .

للمراحل التاريخية التي انقضت ، والتي يكون من العسير على الباحثين دراستها بطريقة مباشرة .

حتى ان بعض الباحثين يعمدون الى الاعتماد على التحليل الاجتماعي للاعمال الادبية لتحديد وبلورة الطابع القومي لشخصية شعب من الشعوب (٢) .

وقد لجأ الى ذلك بعض الكتاب الاسرائيليين الذين حاولوا ان يستخدموا بذكاء منطق العلوم الاجتماعية ولغتها في تفسير هزيمة العرب في عدوان ١٩٦٧ . ففي دراسة نشرها هاركابى مدير المخابرات الاسرائيلية السابق ،حاول فيها ان يدلل على الفرض الرئيسي الذي يقيم عليه دراسته والذي مبناه ان ضعف الروابط الاجتماعية بين العرب وانعدام تماسكهم الاجتماعي هو السبب الذي ادى الى هزيمتهم على ارض المعركة (٣) . ذلك ان انعدام روح الفريق بين العرب ، والروح الفردية التي تسودهم انتقلت معهم الى ميدان القتال ،وكانت سببا رئيسيا في هزيمتهم. وقد استعان هاركابى في تدليله على صحة هذا الفرض بتحليل مضمون الادب العربي القصصي الحديث . وقد استخلص الصورة السائدة للبطل في هذا الادب ، وتبين له انه يتسم بالانعزال عن اقرانه ، وان شعور الاغتراب يهيمن على عالمه النفسي .

ولا نريد ـ حتى لا يتشعب بنا الحديث ويحرفنا عن موضوعنا الاصلي ـ ان نتعقب المنطق الملتوي الذي اعتمد عليه الكاتب الاسرائيلي ، ولا ان نفند مزاعمه التي اجاد صياغتها وصبها في قالب علمي يمكن ان ينخدع به الكثيرون ، فكل ما اردنا ان نشير اليه الثراء الذي تزخر به الاعمال الادبية ، ومدى ما يمكن الاستفادة منها في الاستبصار بالتغيرات المتعددة التي ينطوي عليها اي واقع اجتماعي .

وخلاصة ذلك كله ان الادب المنشور يمكن دراسته وتحليله من وجهة النظر الاجتماعية ، والتوصل على هدى هذا التحليل الى عدد من التعميمات المتعلقة بنوعية البناء الاجتماعي في حقبة تاريخية ما ، او بطبيعة الانسان واتجاهاته الاساسية في نفس الحقبة .

غير ان الفكرة الرئيسية التي يصدر عنها هذا المقال **ان الادب المنشور ـ بالرغم من اهميته الكبرى في التحليل الاجتماعي ـ ليس عينة ممثلة للانتاج الادبي في حقبة تاريخية ما .**

مشكلة الادب غير المنشور :

من الحقائق المعروفة انه ليس كل ما ينتجه الاديب يجد طريقه الى النشر . وليس ذلك وقفا على الادباء الصغار فحسب ، الذين قد تتسبب قلة شهرتهم في وجود حواجز عديدة امامهم تمنعهم من نشر كل ما ينتجونه ، بل اننا نفترض ان الادباء الكبار ايضا ، الذين ليس هناك ما يمنع ـ نظريا ـ من ان يجد انتاجهم سبيله الى النشر قد يوجد لديهم انتاج غير منشور .

والفرض الذي نقدمه في هذا المقال بصدد الادب غير المنشور ، ان اهميته قد تفوق الادب المنشور اذا ما هدفنا من خلال التحليل الاجتماعي الى الكشف عن الاتجاهات الاساسية السائدة في حقبة ما لدى افراد المجتمع ، او لدى اعضاء بعض الطبقات او الفئات الاجتماعية .

فالاتجاهات المعادية للسلطة ، والاراء النقدية ازاء المحرمات في المجتمع ، وكذلك ازاء بعض النظم الاجتماعية الاساسية كالدين او الاسرة كل هذه الاتجاهات التي قد تكون كامنة في عديد من الاعمال الادبية لا يمكن معرفتها الا بتحليل هذه الاعمال ، التي قد لا تجد سبيلها الى النشر لاسباب شتى .

ومن هنا يمثل الادب المنشور دور « الادب الرسمي» ان صح التعبير ، في مقابل الادب غير المنشور الذي يمثل دور « الادب السري » ما دام لم يتح له ان يتصل بالجماهير القارئة عن طريق النشر الواسع المدى . ونقصد بالادب الرسمي في هذا المجال ، الادب الذي سمحت السلطات ـ لاسباب متعددة ـ بنشره ، ولم تحاول منع ظهوره بطريقة او باخرى .

ولعل السؤال الهام الذي يثور بصدد الادب غير المنشور هنا هو : هل يمكن اعتبار هذا الانتاج الادبي ادبا بالمعنى الصحيح ؟

قد يبدو هذا السؤال غريبا ، ولكن لو التفتنا الى الطابع الاجتماعي الاصيل للادب لزالت هذه الغرابة . ذلك ان الادب يستمد تأثيره الاجتماعي الواسع المدى من كونه يؤثر في وجدان واذهان اعداد لا نهاية لها من القراء ، هذا التأثير الذي قد يصل في بعض الاحيان الى التعديل الاساسي لبعض الاتجاهات المقبولة ، او الى التغيير الجوهري في بعض القيم المتوارثة . ومن الواضح ـ بطبيعة الاحوال ـ ان كلامنا ينصب على الادب منذ ان اخترعت المطبعة. اذا صدقت كل هذه الاعتبارات فكيف يمكن لنا ان نعتبر الادب غير المنشور ـ هذا الانتاج الادبي الذي يرقد حبيس ادراج الاديب ـ ادبا ؟ .

ان الادب ـ في معناه الحديث ـ يقوم على فكرة الاتصال الاجتماعي ، وما دام هذا الانتاج غير المنشور لم

---

(٢) انظر في ذلك دراستنا : الطابع القومي للشخصية ، مجلة الفكر المعاصر ، القاهرة ، ابريل ١٩٦٩ ، ص ١٢-٢٧ .

(٣) انظر :

Harkabi , Y . Basic factors in the Arab Collapse during the six .. doy war , in : ORBIS . quarterly journal of world affairs , Vol XI . Fall 1967 , No. 3 .

يصل الى عيون القراء ، فمن الصعوبة اعتباره ادبا . غير ان ذلك لا يمنع مع ذلك من اعتباره ادبا في حالة كمون ان صح التعبير ! ذلك انه اذا ما زالت بعض الاسباب التي كانت تمنع نشره ، فهناك احتمال ،لان تجد النماذج الرفيعة في هذا الانتاج طريقها الى النجاح ، ومن ثم تأخذ مكانها بجانب النماذج الادبية الاخرى ، وتخضع ـ بذلك مثلها ـ لحكم التاريخ .

محاولة اولية لتصنيف الادب غير المنشور :

هناك اسباب متعددة تؤدي الى عدم نشر بعض الانتاج الادبي الذي يبدعه الادباء في حقبة تاريخية معينة. وقد يكون من المفيد ان نعدد ـ بطريقة تأملية بحتة ـ بعض هذه الاسباب :

١ ـ قد يرى الاديب ان بعض انتاجه غير صالح للنشر لعدم نضجه ، وعدم وصوله للمستوى الذي يرضاه لنفسه ، سواء وصل لهذا الحكم بمفرده ، او بالاستعانة بآراء اعضاء جماعته المرجعية التي عادة ما يطمئن الى موضوعية احكامها . (من المعروف انه يحدث في كثير من الاحيان ان يكون لكل اديب مجموعة من الاصدقاء يعرض عليهم مشاريعه الادبية وانتاجه لكي يصدروا حكمهم عليه قبل ان يحاول نشره . هؤلاء الاصدقاء هم ما نقصدهم باشارتنا الى الجماعة المرجعية للاديب).

٢ ـ ان يكون الاديب قد حاول نشره ، ولكنه فشل، لان المجلات والجرائد او دور النشر قد رفضته لسبب او لآخر .

ومن الواضح انه يمكن ان يندرج تحت هذا السبب اسباب متعددة . فقد يرفض الانتاج لعدم بلوغه المستوى الادبي المرضي ، او لانطوائه على اتجاهاته مما يجعل الجريدة او المجلة تتحرج من نشره حتى تبعد عن نفسها مظنة تأييدها وترويجها ، او لعدم اتباع الاديب للمنافذ والمسارب التي لا بد من المرور بها في الوسط الادبي ان ان ينشر انتاجه ، او غير ذلك من احتمالات لا يمكن تحديدها على سبيل الحصر .

٣ ـ ان يكون الاديب ـ بالرغم من رضائه عن انتاجه الادبي غير المنشور قد حبسه عن النشر خوفا من العواقب نظرا لاحتوائه على نقد اجتماعي بالغ العنف للسلطة ، او لطرق ممارستها ، او نظرا لتضمنه هجوما عنيفا على احد النظم الاجتماعية الاساسية في المجتمع ، كالدين الذي يعتبر الهجوم عليه « تابو » (امرا محرما) في المجتمعات المتخلفة .

٤ ـ ان تطرأ في المجتمع احداث كبرى ،تجعل الاديب يقدر عدم جدوى نشر انتاجه ، نظرا لان الاحداث قد استغرقت ما كان يهدف الى الدعوة له في انتاجه .

ولعل من ابرز الامثلة على ذلك ان انفجار ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ في مصر قد اثر تأثيرا بالغا على المشاريع الابداعية لعدد من الادباء المصريين .

نجيب محفوظ مثلا ، كان قد أعد برنامجا طويلا لرواياته التي يزمع كتابتها ، ولكنه ـ بعد قدوم الثورة ـ عدل عنه، بل وفكر في التوقف عن الكتابة .

في مثل هذه الحالات ، اذا كان الاديب يمارس النقد الاجتماعي ، ويبشر بقيم جديدة يدعو اليها بصورة صريحة او ضمنية ، فقد يرى في قدوم الثورة وتحققها بالفعل، تحقيقا لكل احلامه ، وبالتالي لا يرى جدوى من نشر اعماله التي من هذا القبيل .

هذه بوجه عام الاسباب التي قد تقف وراء عدم نشر الانتاج الادبي ، ولا نزعم ان هذه المحاولة لتصنيف هذه الاسباب جامعة مانعة ، وانما هي تهدف فقط الى القاء بعض الاضواء على هذه الظاهرة .

ومن بين هذه الاسباب جميعا ، نرى ان السبب الثالث وهو الذي يشير الى تضمن الاعمال الادبية اتجاهات معادية للقيم السائدة ، هو اهمها جميعا ، ولذلك قد يكون من المناسب ان نقف بازائه قليلا .

الادب غير المنشور والنقد الاجتماعي :

تسود في كل مجتمع قيم معينة ، قد يعد الهجوم عليها او انتقادها في بعض الحقب التاريخية امرا غير مقبول ، تحاربه الاجهزة الرسمية في المجتمع ، او قد تستنكره الجماهير نفسها ، ومن ثم يمكن ان نفترض ان الاعمال الادبية التي تنطوي على اتجاهات نقدية للقيم السائدة قد لا تجد سبيلها الى النشر . وفي راينا ان اهم هذه الاتجاهات ما تعلق بنقد السلطة او بنقد بعض المحرمات في المجتمع او معالجتها بطريقة مكشوفة ، او نقد بعض النظم الاجتماعية الاساسية كالدين .

١ ـ نقد السلطة :

يقوم الادب في كثير من الاحيان بدور طليعي في ما يمكن ان نطلق عليه « النقد الاجتماعي »(٤) .

وقد كان للنقد الاجتماعي ـ بصورة او اخرى ـ مكانه في اغلب المجتمعات الانسانية . ويصدق ذلك تماما حتى بالنسبة لاكثر المجتمعات القبلية بساطة ، فمن المحتمل انه في هذه المجتمعات قد يحدث في بعض الاحيان ان توجه الانتقادات الى طريقة تنظيم الصيد مثلا ، او لطريقة عقد زواج ما ، او اقامة احتفال ديني ، من فرد او من جماعة اجتماعية ما . ولكن مما لا شك فيه ان مجال النقد في

(٤) اعتمدنا فيما يتعلق بنشأة النقد الاجتماعي وتطوره على المرجع التالي :

Bottomore , T.B. Crifics of Soc'ety , Radical thought in North America , London : G . Allen & Unwin LTD . , 2 edition , 1969 , P P. 9- 19 .

مثل هذه المجتمعات كان محدودا . ذلك لان قوةالعادات ورسوخ التقاليد كانا يحدان من امكانية توجيه الانتقادات العنيفة لضروب السلوك السائدة ، نظرا لسوء عاقبة من كان يقدم على ذلك .

ولم يتح للنقد الاجتماعي ان يأخذ طريقه الا في المجتمعات حين صعدت في مدارج الرقي وتطورت فيها الامور بحيث تقدمت اقتصادياتها ، وتطورت في الحياة الحضرية ونمت لدرجة صغيرة او كبيرة طبقة مثقفة محترفة .

قد يعترض علىذلك بدعوىان النقد الاجتماعيقد عرف منذ قديم، وخصوصا عند اليونان . ويمكن ان يساق على سبيل المثال ، محاكمة سقراط وادانته بتهمة افساداخلاق الشباب ، بمعنى اثارته لتساؤلات عديدة حول اهم الافكار التقليدية الاساسية في المجتمع . غير ان هذا الاعتراض مردود عليه في الواقع ، بان النقد كان مقصورا في المجتمع الاثيني على جماعة محدودة من الناس ، وكانت الموضوعات التي ينصب عليها محدودة ، وحين كانيتجاوز جدوده ، فقد كان العقاب هو الجزاء الذي يوقع على من يقدم عليه .

والحقيقةانه يمكن القول انالنقد الاجتماعي الحقيقي باعتباره احد العوامل المؤثرة على شئون البشر يمكن رد بداياته الى القرن الثامن عشر في اوروبا ، ونعني في الفترة التي اصطلح على تسميتها « عصر التنوير » اشارة الى نقيضه عصر الظلام، حين كانت اوروبا غارقة فيبحور من الفكر الاطلاقي المجرد ، وراسفة تحت نير الحكم الاستبدادي .

وقد ساعدت عوامل شتى على نمو روح النقد الاجتماعي ، لعل اهمها انفجار المعرفة في مجال العلوم الطبيعية ، الناجم عن ممارسة حرية اوسعفي البحث وفي استخدام المناهج التجريبية ، وكذلك نتيجة للنمو الصناعي ، مما شجع على بسط نطاق هذه الحرية وتطبيق نفس المناهج في دراسة الحياة الاجتماعية . ونشأت طبقة جديدة بعيدة عننفوذ الكنيسة. ونشأت ايضا طبقةجديدة من المنظمين الاقتصاديين ورجال الصناعة ، كان اعضاؤها حرصاء على الانفلات من اسار القيود الاقطاعية ، وآملين في امتلاك ناصية الحكومة والادارة . ونشأت الحركات الديموقراطية مطالبة بتوسيع دائرة الحقوق السياسيةلكي يتمتع بها جمهور الراشدين من السكان . وقد ادى نمو الصناعة وتطورها الى تحطيم الحواجز والقيود القديمة، ولكنه في نفس الوقت ادى الى خلق مشكلات جديدة . كازدحام المدن ، والظروف غير الصحية التي تسود فيها والفقر ، والتغيرات التي لحقت بالاسرة نتيجة عمل النساء والاطفال في المصانع ، والحاجة الى توفير وتنظيم انشطة وقت الفراغ لجماهير السكان في الحضر .

وليس غريبا اذن ، ان تنشأ في نهاية القرن الثامن عشر حركات الاحتجاج الاجتماعي ، والنقد الاجتماعي بصورة لم يكن من الممكن تصورها من قبل . وقد شملت هذه الحركات اوروبا الغربية كلها ، غير انها ظهرت في اوج عنفوانها في فرنسا على وجه الخصوص وخصوصا في بدايتها . وقد افصحت هذه الحركات عن نفسها — في مجال الفعل — في الثورة الفرنسية ، اما في مجال الفكر النقدي فان الموسوعة العظيمة التي اشرف على تحريرها ديدرو ودالامبير تقف شامخة ، وشاهدة على تعاظم دور الفكر النقدي ، وبروز دوره في مهاجمة القيم والافكار الرجعية التي تسود المجتمع .

وعند منتصف القرن التاسع عشر استتبت قواعد وتقاليد النقد الاجتماعي في اوروبا . وقد اتخذ هذا النقد صورا متعددة . فقد نشر الاشتراكيون الاوائل في فرنسا وانجلترا انتقاداتهم للنظام الرأسمالي الصناعي ، وقدموا الحلول البديلة في صورة برامج للاصلاح الاجتماعي ، او في صورة يوتوبيات تأملية . وظهر البيان الشيوعي عام ١٨٤٨ ، الذي صاحب انتقال عديد من الثورات في اوروبا . وانتشرت بسرعة شديدة الاحزاب الاشتراكية ، ونقابات العمال ، والجمعيات التعاونية . وفي كل مكان كان هناك ناس يناقشون العقائد التقليدية، والقواعد الاجتماعية التي كان من المفروض ان تقودهم عبر مسارات الحياة .

وقد ساعدت العلوم الاجتماعية الجديدة كثيرا على نمو حركة النقد الاجتماعي ، حتى في الحالات التي لم تكن فيها مرتبطة — بصورة او باخرى — بالاشتراكية . فقد بحث علماء الاقتصاد السياسي الظروف السائدة لدى العمال الصناعيين ، في المصانع وفي البيوت ، واقترح بعضهم اجراء اصلاحات جذرية . ودرس علماء الاجتماع المشكلات المتعلقة بشكل الحكومة ، ونظام الملكية ، ومستقبل الحياة الاسرية ، والآثار الاجتماعية للمذاهب الدينية والخلقية .

ونادى اوجست كونت في كتابه « نظام للفلسفة الوضعية » بان حياة الناس الاجتماعية لم يعد ممكنا ان يهيمن عليها الدين المسيحي الذي القى بظله على اوروبا في العهد الوسيط ، وان هناك حاجة الى فلسفة عقليةجديدة وذلك لاعادة صياغة الحياة السياسية والاقتصادية والذهنية .

اما كارل ماركس فقد اكد على اهمية العلم والتكنولوجيا ، ولكنهرأىان آثاره تكمنفي تشكيل طبقات اجتماعية جديدة ، وتعاظم الصراع الطبقي ، وتنبأ بمقدم مجتمع تسوده المساواة ، وينهض على اساس الانتاج التعاوني ، ويعمه الرخاء ، وذلك بعد ان نقد النظام الاقتصادي والسياسي للرأسمالية نقدا عنيفا .

وخلاصة ما سبق كله أن تقاليد النقد الاجتماعي اتيح لها ان تستتب في البلاد الاوروبية بعد صراع بالغ العنف والضراوة . وقد قامت الاعمال الادبية بدور بارز في هذا الصراع منذ وقت مبكر . ويكفينا هنا الاشارة الى اعمال شهيرة مثل رواية « كانديد » لفولتير ، وروايات جورج صاند وروايات ديكنز وغيرها من الاعمال الادبية التي توالت لتقوم بدورها في معركة تحرير الانسان من القيود التي تكبل حريته ، وفي سبيل اعادة صياغة المجتمعات على هدى فلسفات « تقدمية » ، كانت تنشأ وتنمو وترسخ وتقوم بدورها لفترة تاريخية ـ قد تقصر أو تطول ـ حسب الاحوال قبل ان تهدمها وتقوم على انقاضها فلسفات اخرى بطريقة جدلية مستمرة .

ومعنى ذلك ان استقرار تقاليد النقد الاجتماعي تسمح للاديب الاوروبي في العصر الحاضر بممارسة اكبر قدر من الحرية في نقد السلطة بكل صورها ، سياسية كانت او اقتصاديه او اجتماعية او دينية . ومن هنا فهو ليس مضطرا الى ان يحجب بعض اعماله عن النشر خوفا من سوء العاقبه ، ومن ناحية اخرى فالاجهزة الرسمية في المجتمع لا تمارس حقها في الرقابة على الاعمال الادبية الا في اضيق الحدود .

غير ان الوضع على عكس ذلك تقريبا في كثير من البلاد النامية ، التي ما زالت تسود في عديد منها اوضاع سياسية تمنع الاديب في الانطلاق ، وتسد امام قلمه المنافذ ، فيصبح ولا مهرب امامه ، اما ان يكف عن ممارسة النقد الاجتماعي للسلطة ، ويتكيف مع الاوضاع السائدة ، او لا يقبل هذه القيود المفروضة عليه ، ويصر على ممارسة الكتابة بالصورة التي يرضاها ، وهو ان فعل اما ان يحجب اعماله عن النشر ، املا في تغير الظروف ، مما من شأنه ان يتيح لها ان ترى النور ، او يحاول نشرها ويجرب حظه ، ومن شأن هذا ان يعرضه لكل انواع القيود المفروضة على الاديب في هذه المجتمعات .

على ضوء ذلك نستطيع ان نفترض انه كلما زاد ضغط القيود على حرية التعبير في المجتمع ، كلما زاد تعدد الاعمال الادبية غير المنشورة التي يعنف فيها نقد السلطة ، وتزداد حدة نبرة النقد الاجتماعي . غير ان هذا الافتراض لا يمكن بطبيعة الحال التحقق من صحته الا باجراء بحث اجتماعي خاص يحاول استكشاف الجوانب المتعددة لمشكلة الادب غير المنشور .

٢ ـ نقد المحرمات في المجتمع :

في كل مجتمع توجد بعض المحرمات Taboos لا يتجاسر انسان على التعرض لها ومناقشتها ونقدها بصورة علنية ، والا اصابه كثير من الاذى . في المراحل التاريخية السابقة ـ ما قبل القرن الثامن عشر على وجه التحديد في اوروبا ـ كان الدين يمثل ابرز هذه المحرمات في المجتمعات الاوروبية . ذلك انه نتيجة لعوامل متعددة ـ ليس هنا مجال التفصيل فيها ـ سيطر الفكر الديني الرجعي على المجتمعات، وصور رجال الدين المرتزقة الدين باعتباره قيمة عليا لا يجوز التعرض لها او مناقشتها باي حال من الاحوال . ومن هنا خاضت هذه المجتمعات معركة « العلمانية » للقضاء نهائيا على هذه السيطرة للفكر الديني ، وهيمنته على مقدرات البشر ، ووقوفه سدا منيعا امام امكانيات تحرر الانسان .

ويمثل الجنس في كثير من المجتمعات ـ وخصوصا المجتمعات المتخلفة ـ محرما من المحرمات الاساسية . ولذلك كثيرا ما تهاجم بعض الاعمال الادبية على اساس أنها تتعرض للجنس بطريقة مكشوفة . وترتفع الاصوات في مثل هذه الحالات داعية لمصادرة هذه الاعمال توقيا لآثارها السيئة على جماهير القراء .

ولذلك نفترض ان بعض الادباء الذين يبدعون في ظل مثل هذا المناخ المتزمت ، قد يميلون في بعض الاحيان الى ممارسة تجارب في التعبير الادبي الطليق ـ ان صح التعبير ـ متحررين من كل القيود المفروضة على اقلام الادباء ، لمعالجة موضوع الجنس في المجتمع بصورة متحررة . غير ان هذه الاعمال لا يقدر لها النشر ، اما لان الاديب نفسه يمارس الرقابة الذاتية على اعماله الادبية، ويتحرج من محاولة نشرها ، واما لان اجهزة المجتمع نفسها منعتها من النشر بعد ان حاول الاديب نشرها .

٣ ـ نقد الدين :

يمثل الدين في عديد من المجتمعات المتخلفة قمة المحرمات في المجتمع . غير انه يتميز بوضع خاص بينها، ومن هنا حق افراده بالحديث .

في بعض البلاد العربية مثل لبنان على سبيل المثال لا يستطيع الباحث ان يمس العامل الديني وصلته ببعض الظاهرات الاخرى ، حتى لو كانت طبيعة البحث الذي يجريه ، تحتم عليه دراسة هذه العلاقة . ذلك ان الاعتبارات السياسية التي تولي مسألة التوازن الديني في هذا المجتمع اهمية كبرى، تحرم التعرض للعامل الديني(٥) وهي بذلك تحجر على حرية الباحثين والمفكرين .

وما يصدق على البحث العلمي يصدق على الاعمال الادبية . ففي مثل هذا المجتمع لا يستطيع الاديب ان يتناول الدين : قضاياه السياسية ، او ممارسته الاجتماعية بكل ما يتضمنه ذلك من تشويهات لجوهره الاصلي ، او

---

(٥) راجع في ذلك دراسة الباحث اللبناني سمير خلف عن ازمة تنمية المثقفين العرب :

Khalaf , S. , La crise de croissance des intellectuels arabes , in : Diogéne , No . 54 , 65 - 91 .

للشخصيات الدينية تاريخية كانت او معاصرة ، بحرية وانطلاق .

ومن هنا نفترض انه في مثل هذه المجتمعات هناك احتمال ان توجد لدى الادباء اعمال ادبية غير منشورة تتضمن نقدا للظواهر الدينية المختلفة ، وتعبر بذلك عن الاتجاهات العميقة لفئات عريضة من الرأي العام في هذه المجمعات، غير انها مع ذلك تظل حبيسة الادراج، رضوخا للقيم الرجعية السائدة ، التي تحيط الدين بالقداسة وترفض ان تجعله موضوعا من موضوعات التفكير الانساني كغيره من الموضوعات .

الادب غير المنشور وحرية التفكير :

ان الاسباب الثلاثة الرئيسية التي ركزنا عليها الضوء باعتبارها تقف وراء عدد من الاعمال الادبية غير المنشورة، وهي نقد السلطة ، ونقد بعض المحرمات في المجتمع، ونقد الدين ، ترتبط جميعا بمشكلة حرية التفكير والتعبير في المجتمع .

وهذه المشكلة بالغة الاهمية بالنسبة لمجتمعاتنا العربية في مرحلة تطورها الراهنة .

لقد حرص اكثر من باحث عربي من الذين عنوا بكتابة تحليلات علمية جادة وعميقة لاسباب النكسة العربية، ان يبرزوا جانبا سلبيا من الجوانب التي تتسم بها الشخصية العربية . قال بعضهم ان العربي ـ بوجه عام ـ حساس جدا لضغط الآراء الاجتماعية ويهتم ابلغ الاهتمام بالمظهر والشكل ، ويحرص على ان يكون هذا الشكل سليما لا تخدشه شائبة ، حتى لو كان الجوهر معيبا .

وان عند العربي تضادا صارخا بين طريقته في السلوك في المجتمع وبين افكاره العميقة وعواطفه وانفعالاته التي تضطرم بها نفسه ، والتي لا يفصح عنها الا في مجالسه الخاصة ، وان ما يجهر به لا علاقة تربطه بما يفعله خفية .

اذا كانت كل هذه الاحكام التعميمية صحيحة ، فانها قد تفسر ما هو مشاهد بين المثقفين العرب ، حيث تختفي الصراحة في التعبير عن المعتقدات العميقة التي يؤمنون بها ، وفي نقد الآراء التي يؤمن بها الغير . وفي مجتمع اوتوقراطي ، يسود الخوف من مهاجمة السلفيين او القدامى هجوما مباشرا ،او من تحدى المبادىء شبه المقدسة للنظام القائم ، ان العداوة التي تتراكم ازاء النظام القائم نادرا ما يعبر عنها بكلمات تجد طريقها الى جماهير القراء . في مثل هذا المجتمع ـ كما ذهب الى ذلك بعض الباحثين الاجانب ـ نجد الحقد والاحتقار والكراهية تأخذ شكل القناع الذي يعبر عن الخضوع المهذب ، وبذلك يصبح القناع هو الانسان ، ويصبح الانسان هو القناع ».

اذا كان الامر كذلك ، فان التحليل الاجتماعي للادب غير المنشور يهدف اساسا الى كشف هذه الاقنعة المزيفة للتعرف على ملامح الوجوه الحقيقية وقسماتها البارزة .

***

ان مشكلة الادباء المبدعين في مجتمع متخلف تعد جزءا من مشكلة المثقفين بوجه عام في مثل هذا المجتمع. والمثقفون ـ اذا نظرنا اليهم كجماعة اجتماعية ـ غالبا ما تنتابهم بصورة دائمة ضروب شتى من القلق ، يرد بعضها الى طبيعة المهمة المنوطة بالمثقف ، ويرد البعض الآخر الى الظروف الاقتصادية والاجتماعية والمناخ السياسي للبيئة التي يعيش فيها .

غير ان افدح الاخطار التي تقابل المثقفين لا تكمن في القلق الذي عادة ما يحيط بهم ،، ولكنه يكمن اساسا في ضربين من ضروب السلوك الاجتماعي . فالمثقف عليه ان يحذر من الاندماج الكلي في المجتمع ، ومن الانعزال الكلي عنه ايضا .

فالمثقف اذا اندمج اندماجا كليا مع مجتمعه، وتوحد معه ، فمعنى ذلك انه سيعجز عن القيام بوظيفته النقدية، مع ان الاتجاه النقدي الدائم ازاء المجتمع هو الذي يميز المثقف اساسا عن غيره . وخطورة اندماجه الكلي مع المجتمع ان يتحول من النقد الى التبرير ، والتماس الاعذار لكل ما يحيط به من ضروب السلبية والانحراف والتخلف .

وقد يتطرف المثقف في الاتجاه المضاد ، فينعزل عن المجتمع انعزالا كليا . والانعزال الكلي للمثقف عن المجتمع تبدو خطورته في حرمان شخصيته من ان تثبت وجودها في المحيط الاجتماعي . بل ان ذلك من شأنه ان يحرم المثقف من ان يقوم بوظيفته النقدية .

ان المثقف المعاصر في مجتمع متخلف يكاد يسير اليوم في طريق مسدود ، وهو اذا ما استطاع ان يتجنب الوقوع في مزلق الاندماج الكلي او الانعزال الكلي عن المجتمع ، لا يبقى امامه سوى طريق ثالث ووحيد ، هو ان يقوم بوظيفته النقدية في المجتمع .

وهنا نصل الى تقاطع الطرق . فكيف يستطيع ان يقوم بذلك في ظل القيود العديدة والمحاذير الكثيرة التي تقف في وجهه ؟

هل يحاول المجابهة بآرائه بكل ما يتضمنه ذلك من مخاطر شتى ، سواء بالنسبة لشخصه وسلامته ، او بالنسبة لاستمرار مشروعه النقدي ؟

او يحاول ان يصطنع لغة «دبلوماسية» فيها كل خصائص اللغة الرمزية الحافلة بالايماءات والاشارات التي لا تكاد تفصح او تبين عن آرائه الحقيقية ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة البالغة الاهمية لا يمكن ان يتم على اساس تأملي بحت . ومن هنا نذهب الى ان اجراء بحث موضوعه التحليل الاجتماعي للأدب غير المنشور يمكن ان يقودنا ـ بناء على التحليل الواقعي ـ الى اجابات موضوعية عليها .

ويمكن اجراء هذا البحث مع تركيز مجاله على ميدان او اكثر من ميادين الابداع الادبي كالرواية او القصة القصيرة او الشعر . وذلك على اساس تجميع النماذج وتصنيفها طبقا لاسباب عدم نشرها ، ودراستها ومقارنتها بالادب المنشور في نفس الفترة التي كتبت فيها ، وتحليل مضمونها للكشف عن الاتجاهات والاراء الكامنة فيها .

بناء على نتائج هذا البحث نستطيع ان نفهم ونفسر بعض الظواهر السائدة في الادب العربي المعاصر ، ومن بينها عدم وجود نماذج ادبية عديدة منشورة يبرز فيها النقد الاجتماعي للسلطة او للمحرمات في المجتمع او للدين بصورة واضحة .

ان الفرض الذي نقدمه بهذا الصدد ، ان عدم وجود هذه النماذج المنشورة لا يعني ان الادباء العرب لم يمارسوا النقد الاجتماعي على النحو الذي اشرنا اليه ، وانما يعني ان هذه النماذج حجبت عن النشر لسبب او لآخر .

ولو تبين من البحث الذي من المفروض ان يجري على عينة كافية من الادباء ، عدم صحة هذا الفرض ، بمعنى عدم وجود نماذج ادبية لديهم تتوافر فيها الشروط التي حددناها ، فهذا في حد ذاته يمكن ان يعد نتيجة بالغة الاهمية مؤداها ان الاديب العربي ، نتيجة للقيود والمحاذير التي تحيط به ، قد توقف عن ممارسة دوره النقدي في المجتمع .

غير انه يبدو ـ على ضوء بعض المناقشات المبدئية مع بعض الادباء العرب ـ ان هذه النتيجة غير صحيحة، وان لديهم فعلا نماذج متعددة حافلة بالصدق الفني ، ونابضة بحرارة التجارب الاصيلة ، ومعبرة عن نقدهم الاجتماعي العميق لعديد من «المحرمات» في المجتمع .

القاهرة — السيد يس

صدر حديثا

الكسب بالشعر

تأليف

الدكتور جلال الخياط

تأطير وتجميع وحصر لظاهرة التكسب بالشعر منذ العصر الجاهلي حتى الوقت الحاضر .

لقد جعت حتى اكلت النوى المحرق، ولقد مشيت حتى انتعلت الدم ، وحتى تمنيت ان وجهي حذاء لقدمي .. افلا رجل يرحم ابن السبيل ؟ ـ شاعر ـ

✶

اوصيك بالمسألة ، فانها تجارة لن تبور .
ـ الحطيئة ـ

✶

والله لكأني على النار اذا دخلت على الخلفاء والملوك لاني اذا كنت عندهم فلا أملك من امري شيئا . ـ ابو نواس ـ

✶

شاعر « العزيز » وما بالقليل ذا اللقب
ـ شوقي ـ

✶

اصطناع الرجال صناعة قائمة بذاتها .

✶

نهى الخليفة عمر (رض) الحطيئة عن الهجاء قائلا : « اياك وهجاء الناس . قال : اذن يموت عيالي جوعا ، هذا مكسبي ومنه معاشي » .

✶

المتنبي مدح بدون العشرة والخمسة من الدراهم .

حلف عمران بن حطان ان لا يكذب في شعر باعة الشعر اكثر من عدد الشعر .
ـ الصاحب بن عباد ـ

✶

وقال الامين لابي نواس : انت تتكسب بشعرك اوساخ ايدي جميع الناس .

✶

خلصني ايها الرجل من التكفف ، انقذني من لبس الفقر ، اطلقني من قيد الضر ، اشترني بالاحسان ، اعتبدني بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح ، اكفني مؤونة الغداء والعشاء .
ـ ابوحيان التوحيدي ـ

✶

انا لا امدح الرجال انما امدح النساء ـ عمر بن ابي ربيعة ـ

✶

الشعراء المداح لم يخلقوا بلا معدة . ـ زكي مبارك ـ

✶

ايها الكهل اني اجلك عن الشعر فسل حاجتك
ـ الفضل المسلم ـ بن الوليد ـ

منشورات دار الآداب ـ بيروت